الشروح الأدبية،
بحثٌ في اتجاهات التصنيف عند المعاصرين

د. البشير العوني
كلية اللغة العربية،
جامعة القرويين، مراكش، المملكة المغربية

ملخص بالعربية:

نرى من خلال مراجعة مجموعة من الأبحاث والأعمال التي تنمي إلى مجال البحث في الشروح الأدبية العربية أنها انتبهت إلى مجموعة من الملاحظ والإشارات التي تبِّين عن معنى أن الشروح الأدبية لها دور محوري في الثقافة العربية، ومن ثم نشأت ضرورة محاولة الوقوف على جهود الباحثين المعاصرين في تصنيفها وتوجيه مساراتها، فجاءت دراستنا لهذا الجانب من البحث دائرة حول أنماط من النظر، يمثل كل واحد منها أصولا حاول من خلالها صاحبها حصر الصور التي تتجلى فيها الشروح الأدبية في الثقافة العربية، ومحاولة الجمع بين أجزائها وفق رؤية منهجية منسجمة.

كلمات مفتاحية: شروح أدبية، اتجاهات التصنيف

Abstract (English)

In reviewing a group of research and works that develop in the field of research on Arab literary commentaries, we find a number of observations that show that literary commentaries have a central role in culture Arab, so it was necessary to try to identify the efforts of these contemporary scholars who have tried to classify and guide the course of this type of writing This study attempts to give an insight into the efforts of contemporary researchers in the study of literary comments and their attempts to combine them into a harmonized search format.

Key words: classification trends, literary commentaries

Résumé(français)

En passant en revue un groupe de recherches et d'œuvres qui se développent dans le champ de la recherche sur les commentaires littéraires arabes, nous constatons qu'un certain nombre d'observations qui montrent que les commentaires littéraires ont un rôle central dans la culture arabe, donc il été nécessaire d'essayer d'identifier les efforts de ces chercheurs contemporains qui ont essayé de classer et orienter le parcours de ce type d'écriture Cette étude tente de donner un aperçu des efforts des chercheurs

contemporains dans l'étude des commentaires littéraires et de leurs tentatives pour les combiner dans un format de recherche harmonisé.

Mots clés: tendances de classification, commentaires littéraires

مقدمة

تنوّعت المراجع الحديثة التي جعلت من البحث في الشروح الأدبية على امتداد مسار الثقافة العربية محطًّا للنظر والدراسة، على اختلاف انشغالات هذه المراجع بما يروم أصحابها النظر فيه ومدارسته، وهذا التنوع راجع بالأساس إلى اختلاف وجهات النظر التي ينطلقون منها، حيث إن كلاً منهم كان مستقلا في بحث الزاوية التي رأى أنها هي الملمح النظري الأهم الذي يمكن من خلاله دراسة الشروح الأدبية في نسق تصوّري منسجم، يكون للقارئ بمنزلة مدخل نظري يعطيه انطباعا عاما عن مسار الشروح الأدبية في الثقافة العربية، وذكر أهم محطاته ومنعطفاته، قبل أن يخوض في غمرة البحث في قضايا هذه الشروح ومسائلها.

تعكس هذه المراجع في جملتها مجموعةً من المنطلقات المعرفية والمنهجية التي اعتمدت عليها راميةً إلى حصر الاتجاهات الموجّهة لمسار الشروح الأدبية، ومن ثم نشأت ضرورةُ إبرازها وتجليتها بناءً على نماذجَ ممثِّلة لكل اتجاه، وكان هذا البحث في النماذج يعتمد حينا على أبرز هذه المراجع من حيث تقدّمها في الزمن، إذ لوحظ أن بعضها كان له السبق في الوصول إلى الاتجاه وإبراز خصائصه وبحثه، ثم جاءت المراجع بعده متتبعة خطاه وسائرة على شاكلته، أو بالاعتماد حينا آخر على أقوى هذه الاتجاهات من حيث الإحاطة والإمعان في تفصيل جوانب الاتجاه تصورًا وحدودًا، وكذا استعانةً بأدوات علمية هي في الدراسة أنجع وأنفع من غيرها.

إنّ كل بحثٍ يقصد دراسة الاتجاهات والأنماط التي على وِفقِها تم تصنيف الشروح الأدبية من طرف الباحثين المعاصرين لا بد له من وعيٍ تام بطبيعة هذه الاتجاهات، وكذا أصولها المؤسسة، ثم طبيعة المادة العلمية التي تم استثمارها فيها، وكذا الوعي بنجاعة الوسائل الإجرائية التي يخوض بها كل باحث غمرةَ موضوعه، ويفكّ بها ما استغلق من إشكاليات أطروحته، كل هذا لتكون النتائج منسجمة مع رؤية هؤلاء الباحثين، ومؤتلِفة مع القصد الذي من أجله وضعوا خطوطها العريضة.

لذلك حسن التركيز في هذه الدراسة على الأعمال التي شفعها أصحابها بدراسات تطبيقية، تبرهِن على أن صاحبها على وعيٍ تام بخطر هذه الاتجاهات في الثقافة العربية، وأهميتها في رصد جملة من المباحث القمنة بإضفاء طابع تجديدي في الدراسات الأدبية المعاصرة، ويَخرُج الاتجاه به من كونه حبيس الفكر المجرد إلى ميدان يبرهَن فيه عن صدقه في التمثّل التطبيقي.

وبتتبع جملة من المراجع الحديثة التي اهتمت بتصنيف الاتجاهات الممثلة للشروح الأدبية في الثقافة العربية نجدها تتنوع إلى خمسة أنواع، وهي ما سنخصّه بالنظر فيما يأتي:

1- التصنيف باعتبار مقصدية الشرح

كان من بين أقدم المصنفات والمراجع التي تناولت الشروح الأدبية من خلال تقسيمها باعتبار القصد من تأليفها لدى الشراح هي دراسة رضوان الداية في «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس»[1]، حيث بدأ الكاتب أولا بذكر أن الشروح الأدبية يمكن النظر إليها باعتبارات عدة، الغاية منها جميعا «تتبع حركة الشرح، وتبيّن المسالك التي انتهجها الشارحون، واتجاهاتهم، ومناحي شروحهم»[2]، ثم نبّه على أمر آخر وهو أن عمله هذا أو ما هو على منواله سيصطدم بعائق منهجي لا مفرّ منه، هو التداخل الذي وجده مصنفو اتجاهات الشروح الأدبية بعده أيضًا، قال رضوان الداية: «ومهما كان نوع التقسيم الذي سأنتهي إليه، فإنه تقسيم يأخذ بالصفة الغالبة المميزة، لأن الشرح القاصر على وجه أدبي أو فني قصورا تاما نادرٌ»[3].

بعد هذا البيان ألمح رضوان الداية إلى أن الشروح الأدبية يمكن أن تصنّف إلى قسمين أساسيين: شروح تعليمية عامة وشروح «قد تكون من الشروح المطوّلة حتى تكاد تلحق بكتب الأدب وتاريخه لاتساعها، وقد تكون شروحا خاصة بموضوع بعينه لا تعدوه، أو تكون قائمة على أساس تذوقي جمالي»[4]، فكان تقسيمه لاتجاهات الشروح على هذا النحو:

- الشروح التعليمية العامة، «ويتمثل هذا القسم في شروحٍ هي: شرح ديوان مسلم بن الوليد للطبيخي، وشرح ديوان المتنبي لابن الأفليلي، شرح الأشعار الستة للأعلم الشنتمري، وشرح الأشعار الستة للبطليوسي، وشرح مقصورة ابن دريد لابن هشام اللخمي»[5].
- الشروح الذوقية الجمالية، ويمثل لها بشرح سقط الزند لابن السيد، وشرح المشكل من شعر المتنبي لابن سيده.
- الشروح الخاصة، ويمثل لها بشرح الشريشي على مقامات الحريري.
- الشروح الأدبية الجامعة اللاحقة بكتب تاريخ الأدب، ومثل لها بشرح ابن بدرون على البسامة.

وبعد بيان ما يمثل هذه الأقسام من النماذج جعل رضوان الداية يتناول كل نموذج منها على حِدة بالملاحظة والبحث، من حيث المادة العلمية والإطار المعرفي الجامع والمنهج التأليفي وغير ذلك من السمات الطابعة لكل شرح، فيبدأ أولا بإعطاء ملامح عامة حول الشرح الأدبي، مثل الحديث عن الشارح وثقافته التي تؤهله للشرح، ثم ينطلق إلى الحديث عن صاحب المتن المشروح، وبعدَه عن مقدمة الشرح وما يتناوله الشارح فيها من مباحث، ثم ينتقل إلى وصف

المتن من حيث منهجه وطبيعة المباحث اللغوية والنقدية والتاريخية والمصادر التي استفاد منها فيه، ثم ينتهي إلى خلاصات عامة يطلقها عن الشرح، نسوق منها مثلا قوله عن «شرح ديوان صريع» للطبيخي: «وخلاصة ما نقول في طريقة شرحه إن الشارح كان يشرح كل بيت بمفرده في أغلب الأحيان، ويكون شرحه الكلمة الغريبة بكلمة مرادفة أو جملة، ويستعين على ذلك حين يرى حاجة ماسة بالشواهد الشعرية أو الآية من القرآن الكريم، ثم يشرح معنى البيت شرحا مبسوطا وبخاصة المعاني الخفية أو الدقيقة، ويستخرج معاني الشاعر المستترة وراء الاستعارات والكنايات والتلميحات... وكان يشير بعض الإشارات القليلة في التاريخ والأعلام، وتركز اهتمامه على شرح المعاني بالدرجة الأولى...»[6].

يلاحظ أن هذا التصنيف يقوم على تلمس طبيعة المادة الشارحة للمتن الشعري والأدبي بصفة عامة، وهو تلمسٌ يُعنى بخصائصها المنهجية والعلمية وبُعدها الوظيفي المنوط بها، وذلك أن رضوان الداية لمح أن من هذه الشروح من ركز الحديث عن المناحي اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية للأحداث التي يوردها الشاعر في متنه، فكأنه يلمس من الشارح أنه يريد باستعراضه لهذه الملامح تقريب القارئ إلى المتن الشعري وفهم معانيه والوقوف على مقاصده، وهو ما وسمه بالشروح التعليمية، ومن هذه الشروح أيضا صنفٌ يأخذ بيد القارئ لاستكناه الملامح الجمالية في الشعر، والمناحي التي يعتمد في الوصول إليها على إعمال خاصية الذوق الفني، وفهم الدلالات البعيدة في النصوص، مما يميل ببعض الشراح إلى تلمس التقاطعات الشعرية مع المنطق والفلسفة، وهو ما أدخله في القسم الذوقي والجمالي.

الملاحظ أن رضوان الداية لو اقتصر على هذين الصنفين أو زاد عليهما ما يشترك معهما في الطبيعة لكان الأمر محمودًا في نظرنا، لكن لما أضاف إلى هذين الصنفين القسم الذي اهتم بالشروح التاريخية مثلاً، كـ«البسامة» لابن عبدون، جعل يحوّل من طبيعة التصنيف المهتم بخصائص المتن الشارح إلى خلطه بما ينظر إلى خصائص المتن المشروح، فإن شرح ابن عبدون ما اكتسى الطبيعة التاريخية التي هيمنت على الشرح، إلا لما قام دائرا حول قصيدة تاريخية، وهذا اختلاف منهجي صارخ، لا يتناسب مع الصنفين الأولين اللذين تناولهما رضوان الداية، ونحو هذا الأمر يمكن أن يقال بالنسبة لصنف الشروح الخاصة التي مثّل لها بـ«شرح مقامات الحريري» للشريشي، وعلى هذا الأساس يمكن أن يفسر علة التداخل الذي لوحظ بين طبيعة التصنيفات التي اعتمدها رضوان الداية في مرجعه، وهو أمر كان قد نبّه عليه هو وغيره ممن جاء بعده كأحمد زريق حين قال: «لا يمكن التمييز في شروح الشعر خاصة بين شروح تقريرية لغوية وأخرى تصويرية فنية، فغالبًا ما تتداخل الصورتان في الشرح»[7].

يلاحظ أن هناك من الباحثين من استدرك هذا المأخذ في بحثه، بحيث سار على تقسيم الشروح الأدبية إلى أصناف، زاد فيها على ما رأينا عند رضوان الداية في كتابه، وهذا الباحث هو عبد الجواد السقاط في مقال له حول الشروح الشعرية في الأدب المغربي، وذلك حينما نجده قسم اتجاهات الشروح إلى منطلقات ترتبط بطبيعة الأبعاد الوظيفية فيها، فجاء تقسيمه على النحو التالي:

« – منطلق يستهدف غاية لغوية تعليمية، وذلك مثل شرح الحسن بن مسعود اليوسي لداليته في مدح شيخه محمد ابن ناصر الدرعي.

– منطلق يستهدف تقديم بديل عن الشروح السابقة لنفس المتن، وكأن الشارح هنا يتحول إلى متذوق ناقد، لا يرتاح إلى ما وضعه أسلافه من شروح، وذلك شأن الماغوسي في شرحه للامية العجم.

– منطلق يستهدف تصحيح أخطاء النساخ لشروح معينة، وذلك مثل شرح التهامي الشفشاوني للامية العجم.

– منطلق يستهدف الوقوف عند القيمة الأدبية للمتن المشروح، وذلك عن طريق الغوص في القضايا النحوية واللغوية والبلاغية والفنية عموما، كشرح اليفرني لموشحة ابن سهل الإسرائيلي.

– منطلق يستهدف الوقوف عند مضمون المتن المشروح، لا لتوضيح لغته وأسرار صياغته، ولكن لتوضيح مضامينه ومحتوياته، باعتبارها تمثل نوعا من الجدة والطرافة، أو تمثل جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية يستوجب شيئًا من العناية والدرس، ومثال ذلك شرح أبي القاسم بن عبد الجبار الفجيجي على قصيدة عمّه إبراهيم الفجيجي المشهورة بالصيدية» [8].

فعبد الجواد السقاط في هذا التقسيم أكمَل إلى حدٍّ ما المسار الذي بدأه رضوان الداية في «تاريخ النقد الأدبي في الأندلس» في تصنيف الشروح الأدبية، على الرغم مما يعتري بحثه من بعض الملاحظات المنهجية التي أورد خالد الدادسي طرفًا منها في مقال تعقّب فيه عبد الجواد السقاط[9]، والتي ترجع في كثير منها إلى التداخل بين التصنيفات التي جعلها للشروح الأدبية.

ونجد أيضًا من الباحثين المعاصرين من سلك نفس الطريقة في التصنيف مثل شريفة علوي في رسالتها الجامعية «النقد الأدبي التطبيقي للشعر في المغرب»[10]، حيث قسمتها إلى شروح تعليمية وشروح ذوقية جمالية وأخرى خاصة، وأخيرًا شروح جامعة، وسار محمد العمري في مقدمة تحقيقه كتاب «المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل»[11] نفس السيّر حيث لم يخرج عن مثل هذه التصنيفات المنهجية.

2- التصنيف باعتبار طبيعة مادة الشرح

إذا كان توجه أصحاب الاتجاه الأول يعنى بتصنيف الشروح الأدبية باعتبار طبيعة المقصدية الكامنة في ذهن الشارح من شرحه، فإن التصنيف هاهنا يقوم على أساس اعتبار الطبيعة العلمية التي يفرضها الشرح، وقد أشار عدد من الباحثين إلى أن هذا النوع من التصنيف إنما يمكن الحديث عنه بعد تجاوز مرحلة النشأة التي مرّت منها الشروح، وهي مرحلة «كانت ناحلة الخطوط في ذلك العصر، فلم تستطع أن تكوّن اتجاهات واضحة المعالم، وعندما انتقلت صنعة الشروح إلى رجال الطبقة الثانية[12] ألحوا على تلك الخطوط حتى جلّوها للعيان... فوجدنا أنفسنا إزاء اتجاهات ملموسة بارزة»[13].

هذه الاتجاهات تعنى رأسًا بالمناحي العلمية التي من أجلها نصب الشارح تأليفه، إن عن طريق القصد أو لا، فلربما كان ميل الشارح إلى إبراز ناحية علمية في شرحه على حساب أخرى فعلا غير مقصود منه، وإنما جاء عفوًا، «فنحن نجد من الشارحين من تطغى على مصنفاته واحدة أو اثنان أو ثلاث من مسائل الشرح، اللغوية والنحوية والتاريخية والبلاغية والنقدية، فيندفع وراءها، يطاردها من كل صوب، مخلفا سائر جوانب مقتضيات الشرح، لا يعيرها سوى اهتمام جانبي عابر، وبذلك يتميز صنيعه بما يشبه أن يكون اتجاها»[14].

يُرى فخر الدين قباوة من بين أبرز الباحثين المحدَثين الذين تبنوا الكشف عن هذا الجانب العلمي، وممن نصب جزءا من بحوثه شاهدًا قائمًا على عناية بعض الشراح القدامى بجانب من المعرفة والعلم أكثر من غيره، وعلى هذا بنى تصنيفه لهذه الأعمال، حيث إنه في كتابه «منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات» أعطى صورة تاريخية حول مسار الشروح الأدبية في الثقافة العربية القديمة، ثم أخذ ببيان أنه يمكن تصنيفها أخذا بما يرتبط بالمادة العلمية المستثمَرة فيها، فجعل يعرض لهذه الأقسام على حسب الشكل الآتي:

- الاتجاه التاريخي، وهو الذي يعنى فيه الشراح ببيان الإطار التاريخي الذي يحفظ الأحداث التي حفّت بالنص المقصود بالشرح، ومثل لذلك ب«شرح نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة، و«شرح الحماسة» للتبريزي وغيرها.

- الاتجاه اللغوي، ويورد فيه من كان همُّه من الشراح التعرضَ للمعاني اللغوية في الشرح الأدبي، وذلك تأكّدَ حينما «بدت في الشعر العربي القديم ألفاظ غريبة على سامعيها، فاقتضى ذلك تفسيرها ببيان المعنى المراد منها»[15]، وذلك مثل ما يوقف عليه في «شرح المفضليات» لابن الأنباري.

- الاتجاه النحوي، والذي عرض فيه للشروح التي كان شغلها الشاغل تربص الفرص للاسترسال في تقليب الأوجه النحوية والصرفية التي يحتملها التركيب في النص المشروح، وقد مثل لذلك بـ«شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري.

- الاتجاه النقدي، وهو الذي يضم في كنفه جملة الشراح ذوي النزعة النقدية التي لم تتخلف عنهم في شروحهم للأدب العربي، ولا شك أن هذا الاتجاه هو الذي يُبرز أكثر حِنكة الشراح في التعاطي مع النصوص شرحًا وبسطًا ومدارسة، ومن أهم ما ذُكر منها «شرح ديوان أبي تمام» للمرزوقي.

تبنّى هذا الطرح من التصنيف - على الأقل فيما وقفنا عليه - باحثان سارا على الشاكلة التي بدأها فخر الدين قباوة في تصنيفه، وهما طاهر الأخضر حمروني في «منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر»[16]، حيث تعرض في تصنيفه للشروح الأدبية إلى شروح ذوات توجه لغوي ونحوي ونقدي وبلاغي، وكذا الباحث الحسن الوارث في «التطور والتجديد في شرح الشعر العربي القديم بين المشرق والمغرب»[17]، حيث قسم دراسته للاتجاهات إلى تاريخي ولغوي ونقدي وبلاغي.

3- التصنيف باعتبار البنية الشكلية للمتن المشروح

إذا كان الاعتماد في دراسة الاتجاهات التي تؤطر الشروح الأدبية التي عرفتها الثقافة العربية يركز نظره في الأغلب على المتن الشارح وظيفة ونسقا ومادة، فإن الكلام في هذا الموضع من البحث سيخص بالذكر الاتجاهات التي ترقب المتن المقصود بالشرح من خلال بنيته الشكلية التي هي مناط الكلام في هذا الاتجاه.

كان الضابط في الدراسة التصنيفية في هذا الموضع من البحث هو الطبيعة الشكلية التي وجد عليها المتن قيد الشرح، من حيث كونه بيتا مفردا، أو قطعة شعرية أو نثرية، أو قصيدة كاملة أو ديوانا شعريا لشاعر معين، أو مصنّفًا أدبيًا، اختار الشارح واحدًا من هذه الأصناف وتناوله بالمدارسة والشرح، فنجد هذا المنهج ساعيًا إلى تصنيف الشروح مرتبطًا بالطبيعة الشكلية لبنية المادة الأدبية المشروحة، ومن بين أبرز النماذج التي وقع الاختيار عليها تمثيلا لهذا المنحى من التصنيف ما تجلّى في مقال كتبه أحمد زريق في مجلة «عالم الفكر»، عنونه بـ«شروح البيت والقصيدة في الأدب العربي»[18]، حيث قسم الشروح الأدبية التي يقصد إلى دراستها باعتبار اهتمامها بالبيت أو القصيدة، فجاءت دراسته بناء على هذين الاعتبارين مقسمة إلى قسمين:

في القسم الأول تعرض الباحث إلى تصنيف الشروح الأدبية من خلال نموذج للتصنيف امتاحه من أمجد الطرابلسي، وذلك بأن عمد إلى تقسيم الشروح إلى ما يدخل تحت إطار كتب الطبقات والتراجم، أو الكتب العامة في النقد والبلاغة، أو كتب إعجاز القرآن أو التفسير أو

النحو وغير ذلك من المواد العلمية، فأتى أولا على ذكر نماذج من كل مجال منها على حدة، ثم أتبعه بخلاصات وملاحظات حول طبيعة الشرح من حيث المنهج أو المادة أو عمق الدرس وسطحيته أو مدى تأثره بالمجال الذي يضمه، ونسوق مثالا على تلك الخلاصات، من خلال بعض النتائج التي أفضى إليها بحثه في «شروح البيت» ضمن «الكتب العامة في النقد والبلاغة»، حيث يخلص إلى أنها تتسم بـ:

- تراجع الاهتمام بالمعنى ليحتل المرتبة الأخيرة، وإن لم يغب كلية.
- إرجاع سبب هذا التراجع إلى ارتباطه بطبيعة هذه المراجع وبالمقصدية العامة التي توجهها.
- حضور الاهتمام بجزئية معينة داخل البيت الشعري.
- الاحتفاء بالجانب الفني والتصويري بشكل يكاد يكون مطردًا.
- حضور الأحكام التي غالبا ما تصاغ بطريقة مختزلة ممثلة التركيز النهائي والنتيجة المختصرة لمجموعة من المقدمات والتحديدات[19].

لما أكمل الباحث أحمد زريق الحديث عن هذا القسم اتجه صوب الحديث عن شروح القصيدة المفردة، حيث ساق مجموعة من الأمثلة، كشرح ابن بدرون لـ«البسامة» لابن عبدون، وكذا شرح ابن جني لأرجوزة أبي نواس، وشرح الصنوبري لبائية ذي الرمة ونحوها، وخلص في نهاية هذا القسم إلى نتائج عامة، من أهمها أن هذا الصنف من الشروح يقصد إلى:

- التركيز على شرح قصيدة مفردة لشاعر بعينه.
- الإفاضة والتبسط في شرح كل بيت على حدة.

الملاحظ من خلال تتبع هذا البحث أن صاحبه ركّز الحديث كثيرا على القسم الأول مقارنة مع القسم الثاني، الذي لم يتجاوز فيه الصفحتين، وهو ما يجعل حقا على القارئ أن يحكم على القسم الأول من بحث زريق أنه هو البحث كله، فكأن كاتبه كان مضيَّقا عليه في عدد صفحات البحث، فجاء القسم الثاني من بحثه على هذه الهيئة البالغة في الاقتضاب، وهو ما يغيّر من موضوع بحثه من دراسة الشروح بشكل عام باعتبار بنُاها إلى دراسة قسم خاص منها، وهي الشروح الأدبية الناظرة إلى بنية البيت الواحد فقط، ثم هناك ملاحظة أخرى وهي أن الباحث أخرج من دائرة بحثه صنفا جديرا بأن يضمّن فيه، وهو الشروح باعتبار النظر إلى الديوان الشعري، وهو جانب من البحث لا تخطئه عين الدارس للشروح الأدبية في الثقافة العربية.

يلاحظ أن الفصل الذي قام به الباحث – في القسم الأول من بحثه – بين الأبيات على اختلاف طبيعة المصدر العلمي والمعرفي الذي تنمي إليه جعل الأحكام والنتائج النهائية أقرب

إلى الصحة، من جهة أنها لا تجعل الأحكام المستقاة من دراسة هذه الشروح مغرقة في العموميات وضاربة في الكليات، بل إن الباحث حين جعل منها أحكاما مقيدة بالقيدين المنهجيين اللّذين ذكرهما، وهما بنية النص المشروح أولا ثم الفضاء المعرفي الذي تنضوي تحته هو ما جعل الأحكام التي خلص إليها الباحث تحت كل جزء من بحثه أكثر دقة وأقرب إلى الصواب، وهو الأمر الذي يسعى إليه كل مصنف لاتجاهات الشروح الأدبية، أي إنه يبحث في التصنيف الأقرب إلى حصر المادة العلمية التي تمده بإمكانية إطلاق أحكام جزئية.

نسجل أخيرا أننا لم نجد من الباحثين من سار على هذا النهج في دراسة الشروح الأدبية، بخلاف الاتجاهات الأخرى التي تواطأ الباحثون اقتفاء بعضهم أثر بعض فيها.

4- التصنيف بالاعتبار التاريخي للشرح

هذا الاتجاه ينظر إلى الشروح الأدبية باعتبار المسلك التاريخي والأطوار الزمنية التي مرّت منها، فيرصدها بالتتبع والملاحظة والتقييم، دون أن يغفل الإشارة إلى أهم المنعطفات والمحطّات البارزة فيها، والتي كانت من وراء تحوّل فاصلٍ بين مرحلتين من الزمن، وهذا الاتجاه كان هو المنهج المهيمن في الدراسات العربية قبل أن يترك مكانه لغيره من المناهج والاتجاهات المستجدة على الساحة العلمية والثقافية، ومن بين أول ما يطالعنا من البحوث التي سلكت هذا المنهج في دراسة الشروح الأدبية دراسة عبد الله عسيلان المسماة «حماسة أبي تمام وشروحها، دراسة وتحليل»[20]، فبحثُه هذا عبارة عن عرض يتناول فيه المسار التاريخي الذي سجلته الشروح الأدبية في الثقافة العربية، بدأها البحثُ عنده منذ أن كانت الشروح الأدبية عبارة عن ملاحظات يسجلها الرواة في تعليقهم على شعر الشعراء الذين يروون عنهم، وذلك كشفًا عن بعض المعاني التي تغمض في شعرهم، مرورا بالإشارة إلى جهود العلماء الرواة كالمفضّل الضبي وخلف الأحمر ويونس بن حبيب في القرنين الأول والثاني في خدمة شرح النص، والذين كان كلامهم دائرًا حول بيان الغريب من اللغة، والعناية بذكر الأنساب والتواريخ، والتدليل على بعض عيوب الشعر، وهؤلاء وصلت مؤلفاتهم عن طريق تلاميذهم ورواتهما أيضا كأبي عبيدة والأصمعي وغيرهم، الذين زادوا عليهم بالتوسع في الشرح والمعاني والنقد.

أضاف الباحث إلى أنه في أواخر القرن الثالث ظهر نشاط دائب في حركة الشروح الأدبية، توسمت بالتوسّع في الشرح وتتبع آراء السابقين، مع جودة في العرض ودقة في الفهم، يأتي على رأس هؤلاء علماء كالسكري وابن قتيبة وثعلب وغيرهم، إلى أن جاء القرن الرابع الذي برز فيه شراح ذوو ثقافات واسعة ومتنوعة طبعت شروحهم للأدب، حيث ذهب بعضهم إلى تناول

جوانب محددة في الشرح، كالإعراب والتاريخ واللغة، يأتي على رأس هؤلاء أبو بكر الأنباري والصولي وابن جني.

أما القرن الخامس فيعتبر من أزهى العصور التي بلغت فيها الشروح الأدبية ذروتها، حيث لمح فيه عنصر «الاهتمام بالمعاني والتفنن في تقليبها على أكثر من وجه، مع النقد والتحليل والتعليل والإبداع»[21]، كما هو حال المرزوقي في شرح الحماسة والمعري، وغيرهما.

هكذا يسير الباحث عبد الله عسيلان في هذا الاتجاه من تتبع سمات الشروح الأدبية في بحثه عبر المسار التاريخي الحاوي لها، إلى أن يصل به الحديث في ذلك إلى سيد علي المرصفي في شروحه للشعر، حيث إن الباحث لا يكاد يمر بعصر إلا وأولى عنايته بالشروح الأدبية فيه، ثم بالإشارة إلى ملامحها المنهجية العامة، ومدى استثمار الشارح لثقافته في الشرح، وكيفية تعامله مع المعطيات الحافة به، وغير ذلك من الإشارات المبثوثة في تضاعيف بحثه، وما من شك أن هذا المنهج التاريخي في دراسة الشروح الأدبية هو أسهل مأخذا من لدن من أراد أن يقف على صورة عامة لمسار الشروح الأدبية في الثقافة العربية، وقد سلك جملة من الباحثين المعاصرين هذا الدرب في دراستهما للشروح الأدبية، مثل الباحث الهادي الجطلاوي في مقال له في مجلة «فصول»، عنونه بـ «خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام»[22].

5- التصنيف باعتبار النسق المؤسِّس للشرح

كان ظهور هذا النمط من التصنيف على يد الدارسين المعاصرين متأخرًا، إلا أنه اعتُبر من أهم الاتجاهات التي يمكن أن تصنف وتدرس على ضوئه الشروح الأدبية، وذلك لقدرته على جمعها وتصنيفها ضمن أصل واحد ذي طبيعة منسجمة، ولا ننكر أن هذا الشكل من الدراسات إنما هو في الأصل مستورد من الدراسات الغربية، التي اهتمت بدراسة الأنماط والأنساق المعرفية في دراسة النصوص والقضايا والمفاهيم، ويرى الباحث أن التعرض لمباحث الثقافة العربية على اختلافها باستعمال أدوات وآليات معرفية أو منهجية غربيّة أمرًا صحيًّا إذا ما أُخذت على محمل الجدّ التوصيات التي يوردها العلماء في تأطير كل بحث يرمي هذا المرمى[23].

إنّ دراسة الشروح الأدبية بالرجوع إلى الأنساق المعرفية التي ولّدتها نجده حاضرًا بامتياز عند باحثَيْن معاصريْن، الأول هو أحمد الودرني في بحثه «شرح الشعر عند العرب، من الأصول إلى القرن (14 هـ/ 20م)[24]»، والثاني هو المفضل الكنوني في بحث «السياق المعرفي للشروح الأدبية بالمغرب»[25]، وسوف نحاول هنا الوقوف على نموذج المفضل الكنوني، لنرى كيف تجلت عنده الرؤية النسقية للمسار المعرفي الذي عرفته الشروح الأدبية المغربية.

كان الغرض عند المفضل الكنوني في تأليفه ما أفصح عنه من أنه يروم الكشف عن السياق العلمي الذي أنتجت فيه الشروح الأدبية المغربية، في المغرب الأقصى خصوصًا، وذلك إيمانا منه بأن المعارف والعلوم لا يمكن بحال أن تجتث من أنساقها التي تكونت في رحمها، والتي كان لها الفضل في انطباعها بجملة من الخصائص، وتوجيهها إلى مسارات علمية ومعرفية معينة، وقد مهد الكاتب لهذا الأمر بمجموعة من المداخل النظرية، التي كانت بمنزلة إضاءات علمية تمهد له السبيل للحديث عن موضوعه الذي يقصده بالبحث والتأسيس، وكان من جملة هذه المداخل:

- تأكيده على أهمية دراسة الشروح الأدبية بعد تقسيمها إلى اتجاهات، والأنسب أن يكون التصنيف على حسب المناهج، أو يكون التصنيف تاريخيا «باعتباره مؤثرًا قوي الحضور في رسم معالم وسمات البيئة العلمية لكل جيل»[26].

- حديثه عن طورين من أطوار التصنيف في اتجاهات الشروح، طور ما قبل المنهج، وهو طور التأسيس، وطور ما بعد المنهج، وهو طور التحقيق العلمي.

- عرضه لحديث عام حول الشروح الأدبية في المغرب الأقصى، وما انطبعت به من اختلاف البيئة والثقافة وغير ذلك.

- إشارته إلى «الأثر الأندلسي والمشرقي في الشراح المغاربة، وحضور الشروح المشرقية في مرجعيات الشروح الأندلسية»[27].

ثم بعد ذلك أتى الكاتب على ذكر مقصده الأول من بحثه، وهو بيان أن الشروح الأدبية في المغرب الأقصى تأثرت بظروف تاريخية خاصة، وتكوّنت في بيئات علمية وثقافية تختلف في «طرق تكوينها ونوع القيم التي تشبعت بها، ومجالات اهتمامها ومقاصد علمائها ومناهجهم العلمية ووسائل بلوغ هذه الغايات»[28]، فما لبث أن أكد الكاتب ما يقصده في دراسته من خلال عرض تاريخي للظروف التي انطبعت بها البيئة العلمية في المغرب الأقصى، منذ عصر الفتوح في زمن الأدارسة إلى عصر العلويين، الذي انطبع بسمات علمية خاصة، كان من بين أبرز ما ذكر من تجلياتها أنه ظهرت فيها من الشروح الأدبية أنماط عدة، ارتبطت بنصوص عامة أو خاصة...

فكان عمل الكاتب في ضوء هذه المعطيات العلمية أن كشف عن مظاهر البحث في السياقات المعرفية التي تنتمي إليها الشروح الأدبية من خلال مظهرين اثنين، أحدهما مرتبط بالآخر هما: دراسة البيئة العلمية للشراح، وكذا الاهتمام بالكشف عن ثقافته، معضدا كلامه بجملة من الأمثلة والنماذج التطبيقية التي كانت أدلة على ما وراءها من مختلف المظاهر العلمية للشروح الأدبية المرتبطة بسياقها المؤسِّس لها.

نعلم من خلال هذه السّمات النسقية التي تجلت في دراسة المفضل الكنوني أنه لا بد في فهم الظاهرة الأدبية من الوقوف على النسق العلمي الذي أنتجها، وتجريدها عن هذا المنطق والنظر إليها منعزلة عن سياقها يجعلك كمن ينظر إلى منعطفات طرقية، فـ«عندما نكون على سطح الأرض ما نراه هو البنيات فقط: الأعمدة الاسمنتية، الفرُج، الأعمدة الواقية، أجهزة الإنارة الضخمة، وهلم جرًا، أما ما نراه من الأجواء العالية فهو الأنساق لا غير، وطرق يتشابك بعضها ببعض، وتسير تمفصلاتها في جميع الاتجاهات، من نقطة إلى أخرى، لكن عبر تراكبها ومحو بعضها بعضًا»[29].

نشير أخيرا إلى أن صور هذه الاتجاهات قد تختلف وتتعدد، ومن ثم نرى أنه من العسير أن يستوفيها باحث بالحصر، وقد وقف الباحث على كلام لأحد الباحثين يعدد فيه أنواعًا أخرى من التقسيمات لاتجاهات الشروح الأدبية، كاعتبار البعد الجغرافي لهذه المتون الأدبية المشروحة، أو ما تعلق بأنماط المتون الشعرية المشروحة، ككون القصيدة تنمي إلى النمط الخليلي، أو الأرجوزة أو الموشحة، أو ما يرتبط بحجم هذه الشروح، إذ يلاحَظ أنها شروح تنحو نحو الطول والإسهاب أكثر مما ترمي إلى الاختصار والاقتضاب، غير أن هاجس التداخل بين هذه الأنماط حاضر فيها بشكل باد.

نرى من خلال مراجعة مجموعة من الأبحاث والأعمال التي تنمي إلى مجال البحث في الشروح الأدبية العربية أنها انتبهت إلى مجموعة من الملاحظ والإشارات التي تبِين عن معنى أن الشروح الأدبية لها دور محوري في الثقافة العربية، ومن ثم نشأت ضرورة محاولة الوقوف على جهود الباحثين المعاصرين في تصنيفها وتوجيه مساراتها، فجاءت دراستنا لهذا الجانب من البحث دائرة حول أنماط من النظر، يمثل كل واحد منها أصولا حاول من خلالها صاحبها حصر الصور التي تتجلى فيها الشروح الأدبية في الثقافة العربية، ومحاولة الجمع بين أجزائها وفق رؤية منهجية منسجمة.

---

1 الداية، محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط (2)، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1414هـ= 1993م).

2 نفسه ص (72).

3 نفسه ص (74).

4 نفسه ص (75).

5 نفسه ص (74).

6 نفسه ص (92-93).

7 زريق، أحمد، مقال: شروح البيت والقصيدة في الأدب العربي، عالم الفكر، المجلد (35)، العدد (4)، أبريل-يونيو (2007م)، ص (271).

8 السقاط، جواد، مقال: مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي (2)، العدد 289 رمضان-شوال، 1412هـ، ص (85 -86) بتصرف.

9 الدادسي، خالد الحبيب، مقال: مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي ـ (3) ـ (تعقيب خالد الحبيب الدادسي)، مجلة دعوة الحق، عدد (289)، رمضان . شوال، (1412 هـ).

10حافظ علوي، شريفة، النقد الأدبي التطبيقي للشعر في المغرب، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، (1994 . 1995م).

11 الإفراني، محمد، المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، تحقيق محمد العمري، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (1418هـ= 1997م)، ص (19-20).

12 المقصود بـ«الطبقة الثانية» أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد والأخفش الأوسط...، انظر: قباوة، فخر الدين، منهج التبريزي في شروحه، ص (40).

13 نفسه ص (90-91).

14 قباوة، فخر الدين، منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات، ط (2)، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر، دمشق سورية، (1418هـ= 1997م)، ص (90).

15 نفسه ص (97).

16 حمروني، طاهر الأخضر، منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر، الدار التونسية للنشر، (1984م).

17 الوارث الحسن، التطور والتجديد: شرح الشعر العربي القديم، بين المشرق والمغرب، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، ط (1)، (2013م)، ص (235-249).

18 زريق، أحمد، مقال: شروح البيت والقصيدة في الأدب العربي، عالم الفكر، المجلد (35)، العدد (4)، أبريل . يونيو (2007م)، ص (269-290).

19 نفسه ص (275-276)، بتصرف.

20 عسيلان، عبد الله عبد الرحيم، حماسة أبي تمام وشروحها: دراسة وتحليل، دار إحياء الكتب العربية، دت.

21 نفسه ص (61).

22 الجطلاوي، الهادي، مقال: خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام، مجلة فصول، جزء (1)، مجلد (6)، عدد (1)، (1985م).

23 انظر على سبيل المثال: عبد الرحمٰن، طه، مقال: تكامل المعارف، اللسانيات والمنطق والفلسفة، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، عدد (19)، (1423 هـ= 2002م)، ص (72).

24 الودرني، أحمد، أصول النظرية النقدية القديمة من خلال قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير، ط (1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، (2006م).

25 الكنوني، المفضل، السياق المعرفي للشروح الأدبية بالمغرب، ط (1)، مقاربات «مجلة العلوم الإنسانية»، فاس، (2013م).

26 نفسه ص (23).

27 نفسه ص (30).

28 نفسه ص (32).

29 كليمان موازان، ما التاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم وتعليق حسن الطالب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط (1)، (2010م)، ص (226-227).